

(٩) رابعة العدوية (١)

ذكر رابعة العدوية رحمها الله تعالى :

فإن قيل : لم ذكرتها بين المشايخ الرجال؟ قلنا : لأنه قال رسول الله ﷺ :
 «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم، ولكنه ينظر إلى نيّاتكم وقلوبكم»^(٢).
 وأيضاً ورد عنه ﷺ أنه قال : «يُحشِرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»^(٣).

وأيضاً قال ﷺ : «خذوا شطرَ دينكم من الحُميراء»^(٤) يعني عائشة رضي الله عنها، فإذا جازَ في الشرع أخذَ شطرَ الدِّينِ - أي نصفه - من عائشة رضي الله عنها، فيجوز أيضاً أن نستفيد بذكر بعض أعمالٍ جاريةٍ من جواريتها، فإذا كانت

(١) ذكر النسوة المتعبدات (١)، صفة الصفوة ٤/٢٧، المختار من مناقب الأخيار ٥/٢٥٣، وفيات الأعيان ٢/٢٨٥، سير أعلام النبلاء ٨/٢١٥ (٥٣)، العبر ١/٢٧٨، مرآة الجنان ١/٢٨١، الوافي بالوفيات ١٤/٥١، البداية والنهاية ١٠/١٨٦، طبقات الأولياء ٤٠٨، النجوم الزاهرة ١/٣٣٠، نفحات الأنس ٨٢٣، طبقات الشعرائي ١/٦٥، الكواكب الدرية ١/٢٨٥، شذرات الذهب ١/١٩٣. وانظر ترجمتها أيضاً صفحة (٨٤٩).

وكانت رابعة مولاة آل عتيك الذي ينتمي إليهم آل عدوة، ولهذا تُنسب لهم : العدوية.

(٢) الحديث رواه البخاري ٩/١٧١ في النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه، ومسلم (٢٥٦٣) في البر والصلة، باب تحريم الظن، والموطأ ٢/٩٠٧ في حسن الخلق، باب ما جاء في المهاجرة، وأبو داود (٤٨٨٢، ٤٩١٧)، والترمذي (١٩٢٨) عن أبي هريرة. بلفظ : «إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٣) حديث أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٩٢، وابن ماجه في سننه (٤٢٢٩) وأبو يعلى (٦٢٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قال صاحب تحفة الأحوذى ١٠/٢٥٩ : قال الحافظ ابن حجر العسقلاني : لا أعرف له إسناداً، ولا رواية في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير، ولم يذكر من خرجه، وذكر الحافظ عماد الدين ابن كثير أنه سأل المزي والذهبي عنه فلم يعرفاه.

المرأة في طريق عبادة الله تعالى كالرجال لا يُطلقُ عليها المرأة؛ بل هي في الحقيقة رجل.

قال بعض العلماء: إذا نُودي غداً يومَ القيامة: رجال، يكون أولُ من يُجيب مريمَ ورابعةَ عليهما السلام.

أقولُ: مصداقُ هذا الكلام أن مريمَ عليها السلام لما اشتغلت بأعمال الرجال من القنوت - أي العبادة - لا جرمَ أدرجها اللهُ تعالى في زمرة الرجال، ووصفها بصفتهم، حيث قال اللهُ تعالى في وصفها: ﴿وَكَاثَرٌ مِنَ الْقَنِينِ﴾ [التحریم: ١٢] أي من العابدين المطيعين، أي كانت مريمَ عليها السلام من الرجال المطيعين لله تعالى العابدين، ولم يقل: (وكانت من القانتات)، مع أن هذا أنسب بظاهر حالها، والله أعلم.

وأيضاً: امرأة لو لم تكن حاضرة، لما اشتغل الحسنُ البصري رحمه الله بالوعظ على ما رُوي^(١)، فلم يكن ذكرها في الرجال معدوداً من العيب، مع أنها كانت عديمة المثل في زمانها؛ بل وبعده أيضاً^(٢).

وكانت رحمها اللهُ مُعتبرةً لدى أكابر عصرها، وكانت حجةً قاطعة على أهل زمانها.

حكى أن الليلة التي ولدت فيها رابعة، ما كان يوجد في بيت أبيها شيءٌ من المال والمأكول؛ لأنه كان مُقلَّ الحال إلى غاية ما يكون، إلى حدِّ ما كان لهم شيءٌ من الدهن يدهنونها به، ولا زيت مصباح يشعل، ولا قطعة خرق يلقوها بها، وكان له ثلاثُ بنات، ولهذا سمّاها رابعة، ثم قالت امرأته: اذهب إلى بيت فلان من الجيران، واطلب شيئاً من الزيت نشعل به ضوءاً، وهذا الرجل كان له عهدٌ مع الله تعالى أن لا يسأل مخلوقاً شيئاً أبداً، فخرج من البيت، وأتى باب ذلك الشخص، ووضع يده على الباب في غاية الاستحياء، وما أخبرهم

(١) انظر ما تقدم صفحة ٥٣.

(٢) في الأصلين: وبعدها أيضاً.

بالحال، ورجع إلى بيته، وقال: ما فتحوا الباب. فبكت المرأة، والرجل في ذلك الفكر، وضع رأسه على ركبتيه، وأخذ النعاس، فرأى النبي ﷺ في المنام، وقال له: لا تغتم بحصول هذه البنت لك، فإنه سيكون سبعون ألفاً من أمتي في حمايتها وشفاعتها، ثم قال ﷺ: اذهب غداً إلى عيسى بن زاذان حاكم البصرة، وقل له: إن النبي ﷺ يقول لك: إنك كنت تُصلي عليّ في كل ليلة مئة مرة، وفي ليلة الجمعة أربع مئة مرة، فنسيت البارحة، وكفارتُهُ أن يعطيك أربع مئة دينار. فانتبه أبو رابعة من النوم باكياً، وكتب رسالة رسول الله ﷺ في ورقة، وكان هذا أيضاً بأمره ﷺ، وأعطى الورقة في الغد حاجباً من حجاب عيسى، وبعث إليه، فلما أطلع عيسى على مضمونها، تصدَّق على الفقراء بألفي دينار، شكرًا لله تعالى على أن ذكره النبي ﷺ، وأعطى على هذا الرجل أربع مئة دينار، وهو بنفسه جاء إليه، وقال: هو قاصدُ رسولِ الله ﷺ إلينا، فيجب علينا توقيره وإكرامه، ثم حلف على أن كلَّ حاجة تكون له يعرضها عليه، فأخذ الدنانير، وصرفها في حوائج البنت المولودة وغيرها.

فلما كبرت رابعة تُوفي أبوها وأُمُّها، وتفرقت أخواتها عنها، ووقع في البصرة قحطٌ عظيم، واستسجرها^(١) ظالمٌ، وباعها بستة دراهم، والمُشتري كان يستخدمها بالمشقة والتعب.

حتى أنه يوماً تبعها رجلٌ، فهربت منه، فسقطت على الأرض، وانخلعت يدها، فوضعت خدّها على الأرض، وقالت: إنني ضعيفة غريبة لا أب لي ولا أم، أسير تحت يد ظالم، ومع هذا انخلعت يدي، وأنا راضيةٌ بجميعها، لكن لا أعلم هل أنت راضٍ عني أم لا؟ فسمعت صوتاً: يا رابعة، لا تغتمي، فإنَّ لك جاهاً يومَ القيامة يغبطك المقربون من أهل السموات، ثم رجعت إلى بيت سيدها، وكانت تخدمه، وتصومُ النهار^(٢)، وتقوم الليل قائمةً على الرجلين

(١) أي جعلها جاريةً له.

(٢) جاء في هامش (أ): إقرار الحرِّ رقبته كاذباً حراماً، وخدمتها للأجنبية [كذا الأصل] مخالف للشرع، وهذا افتراء على رابعة.

إلى أن انتبه السيدُ في بعض الليالي، وكان على السطح، إذ سمع صوتاً من البيت، فنظر من الروزنة^(١)، فرأى رابعةً في السجدة، وتقول: إلهي، تعلم أن هوى قلبي على موافقتك، وامثال أمرك، ورضاي في خدمة باب عظمتك، وإن كان أمري بيدي ما فترتُ عن الخدمة والعبودية، ولا استرحت، ولكنك جعلتني تحت يد مخلوق، وهكذا تناجي الله تعالى، ورأى قنديلاً معلقاً فوق رأسها بلا سلسلة، والبيتُ قد أضاء منه، فلما اطَّلَعَ السيدُ على حالها، صار متفكراً قائلاً: لا يليقُ بنا أن نستخدمَ مثل هذه، ونجعلها مشغولةً بخدمتنا، بل يجب علينا أن نقوم نحن بخدمتها. فلما أصبح دعا رابعة وأكرمها وأعتقها، فاستأذنتُ منه الرَّوَّاحَ إلى حيث ما شاءت، فأذن لها، فخرجت من بيته، ودخلتُ خربةً، فما كان يَطَّلُعُ على حالها غيرُ علام الغيوب، واشتغلت فيها بالعبادة لله تعالى، وكانت تُصَلِّي في اليوم واللييلة ألفَ ركعة، وتحضرُ مجلسَ الحسن رحمه الله في بعض الأحيان.

وقيل: إنها صارت مُطربةً مغنية، ثم تابث على يد الحسن، ثم تركت الخربة، واتَّخذتُ صومعةً في مغارةٍ بعيدةٍ من الناس، ثم قصدت الحجَّ، وكان لها حمارٌ، فحملتهُ بعض شيءٍ من أثقالها، وتوجَّهتُ إلى مكة^(٢)، فلما بلغتُ نصفَ الطريق هلكَ حمارُها، وأراد بعضُ الناس أن يحملَ أثقالها، فما رضيت، وقالت لهم: أنتم اذهبوا، فإنني ما جئتُ متوكِّلةً عليكم. فارتحلت القافلة، وبقيت رابعةً في البادية منفردةً، قالت: إلهي، الملوكةُ كذا يعملون مع امرأةٍ عاجزةٍ غريبة، دَعَوْتَنِي إلى زيارةِ بيتك، وأهلكَتَ حماري في الطريق، وتركتني في البوادي وما نمتُ؟! وبينما هي في المناجاة إذ تحرَّكَ الحمار، وقام بإذن الله، وحملته رابعة وسارت به، حتى روي أن الحمارَ المذكورَ رُئي يُباع في السوق، ثم بعد زمان قالت: يا رب، تضرَّجتُ، إلى أين أروح وأنا مدَّرةٌ^(٣)، والبيتُ

(١) الروزنة: الكوة النافذة، الخرق بأعلى السقف. متن اللغة (رزن).

(٢) في هامش (أ): وسفر المرأة بغير محرم مخالف للشرع.

(٣) المدَّرة: قطع الطين، واحدها مدَّرة.

ترابٌ وحجر، والمطلوبُ أنت؟ فألهم الله تعالى في قلبها: يا رابعة، أتريدان إحراق العالم مع أهله؟ أما رأيت أن موسى عليه السلام طلب ما تطلبين، فتجلينا على الجبل مقدارَ ذرّة، فانشقَّ الجبل، اقنعي اليوم بالاسم. فلما كان الأمر كذلك جدت في السير حتى لما قربت من الكعبة، رأيت روحانية الكعبة قد استقبلتها، فنظرت إليها وقالت: إنني لا أريدك، ولا أفرحُ باستقبالك، أريد استقبال من قال: «من تقرب إليَّ شبرًا، تقربتُ إليه باعًا»^(١).

أقول: يعني استقبال من هذا كلامه، والله أعلم

نقل أن إبراهيم بن أدهم سلك طريقَ الحجِّ أربع عشرة سنة، وكان رحمه الله يُصلي ركعتين ثم يخطو خطوتين، حتى لما وصل^(٢) إلى الكعبة لم يرها في مكانها، قال: آه، عسى أن في عيني خللاً، فهتف به هاتف وقال: ليس في عينك خلل؛ ولكن الكعبة استقبلت ضعيفةً تجيء إليها^(٣). فحصل لإبراهيم غيرةٌ شديدة، واضطرب خاطرُه، وقال: من الذي بلغ إلى حالٍ تستقبله الكعبة؟ فسعى إليها ونظر، فإذا هي رابعة جائية، ورجعت الكعبة إلى مكانها، وقال إبراهيم: ما هذه الشهرة، أظهرتها في الدنيا؟ قالت رابعة: أنا ما ألقىت الشهرة في الدنيا، ولكن أنت ألقىت، حيث جئت إلى مكة في مدة أربع عشرة سنة. ثم حجّت رابعة، وبكت، وقالت: إلهي، إن قبلت حجّتي فاكتب لي ثوابها، وإن لم تقبلها فتلك مصيبةٌ، فأعطني أجرها.

أقول: يؤيده قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٥٧] وأما أمثال هذه الحكاية أي مجيء الكعبة إلى رابعة استقبالاً لها، إن كانت محمولةً على الظاهر فلا قائل بها، فضلاً عن الاعتقاد، وأما إن حُمِلت على

(١) حديث رواه مسلم (٢٦٨٧) في الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء. عن أبي هريرة.

(٢) في (أ): ثم يخطو خطوة، حتى إذا وصل إلى الكعبة.

(٣) جاء في هامش (أ): واستقبال الكعبة أمر عظيم، لا يقع في نبينا ﷺ، كيف يقع لامرأة من أمته؟.

الباطن والأمور المعنوية فلا استبعادَ فيها؛ ولكن لا يُجزم بها، ولا تُعلم
كيفيتها، والله أعلم

ثم خرجت^(١) رابعة إلى البصرة، واشتغلت هناك بعبادة الله تعالى إلى سنة،
وقالت: الكعبةُ استقبلتني في العام الماضي، وإني أستقبلها في هذه السنة.

فلما جاء وقتُ السفر نقلَ الشيخ أبو علي الفارمذي رحمه الله: أنها قصدت
الحجَّ ثانيًا، ودخلتِ الباديةَ، وكانت تتقلَّبُ على جنبها في الطريق حتى وصلتْ
على هذه الحالة بعد سبع سنين إلى عرفات، فحين انتهتُ إليها سمعتُ هاتفاً
يقول: ما هذا الطلبُ يا مُدَّعية؟ فإن كنت طالبةً لنا ففتجلى لك تجلياً واحداً
لتذوبي في الحال كما يذوبُ الملحُ في الماء. قالت: يا ربَّ العزة، ليس لرابعة
رأسُ مالٍ تتجرُّ به هذا المقدار من المال والربح؛ لكن أطلبُ نقطةً من الفقر.
فثوديتُ: يا رابعة، الفقر هو قهرُنا الموضوعُ على طرق الرجال الذين يتوجَّهون
إلينا، فإذا وصلوا إلى مقام لم يبق بينهم وبين حضرتنا القدسية إلا مقدار شعرة،
لا يأمنون من أن تهبَّ ريحُ القهرِ من هواء الغيرة، وينقلب الحال عليهم،
وينعكس الأمرُ، ويتبدَّل الوصالُ بالفراق، والقربُ بالبعد، والرِّضا
بالسخط^(٢)، وأنت يا رابعة مغمورةٌ بعدُ، محجوبةٌ بسبعين حجاباً، فإذا لم
تقطعي الحُجبَ، ولا تعبري بعده بسبعين مقاماً، لا يُمكنك حديثُ الفقر؛
ولكن يا رابعة انظري إلى فوقك. فنظرتُ، فرأت بحراً من الدم في الهواء،
وقال هاتف: هذا البحرُ الذي رأيتَه دموعُ عشاقنا، أتوا لطلبِ وصالنا، فعطبوا
في المنزلِ الأول، ولم يعلم أحدٌ بهم أثراً في الدارين غيرنا. قالت رابعة:
إلهي، أرني من علامة سعادتهم شيئاً. ففي الحال حاضتُ، ثم سمعتُ هاتفاً
يقول: المقامُ الأول لهم أن يتقلَّبوا على جنوبهم في بوادي محبِّتنا سبع سنين
لزيارَةِ حجرٍ، فإذا وصلوا إلى قرب الحجر ينسُدُّ عليهم الطريق بعلةٍ توجدُ فيهم.

(١) في (أ): ثم رجعت.

(٢) في (أ): وأنشد بعضهم في هذا المعنى بيتين.

فتقلقتُ رابعةً، واضطربت عليها الأحوال، وقالت: إلهي، لا تتركني في بيتي ولا في بيتك! إِمَّا اتركني في بيتي في البصرة^(١)، وإِمَّا يسرّ لي طريقاً إلى بيتك بمكة، فأنا في أوّل الأمر، ما كنتُ راضيةً بالبيت، بل كنتُ أطلبُ ربَّ البيت، والآن فلا طريقَ لي إلى البيت أيضاً، ثم رجعتُ إلى البصرة، وسكنت في صومعتها

ونقل أنه جاء إليها شخصان من الأكابر زيارةً لها، ولهما رغبةٌ في طعام، فقال أحدهما للآخر: لعلّها تُطعمنا شيئاً. فلما جلسا عندها، جاءت إليهما برغيفين كانا عندها، وفرحاً بذلك، وشرعاً في الأكل، إذ جاء سائلٌ بالباب، فأخذتِ الرغيفين، وأعطتهما إياه، فتعجّب الضيفان من ذلك الفعل، ولكن سكتا، فبعد ساعةٍ جاءت جاريةٌ، وأتت لها بخبزٍ كثيرٍ طريٍّ، وقالت: سيدتي بعثت لك^(٢). فعُدَّتْه رابعة، فإذا هي ثمانية عشر، فردَّتْه على الجارية. وقالت: ليس هذا بتمام ما بعثته سيدتك. فبالغتِ الجارية معها لتقبلها وما قبلته، فأخذتِ الجاريةُ الخبزَ، وخرجت من عندها، ثم رجعت به، فعُدَّتْه رابعة، فإذا هو عشرون، فقبلته، وقالت: هذا الذي بعثت إليّ. وقدمته إلى الضيفين، وهما في التعجّب من أحوالها وأفعالها، فشرعاً ثانيًا يأكلان، ثم سألاها عمّا جرى بين يديهما من الأوّل إلى الآخر من الأسرار، وقالا: اشتهينا الخبزَ الأوّل، وما تركته لنأكل منه، ثم عددتِ الخبزَ الذي جاءت به الجارية، ثم قبلت ثانيًا بعد العدِّ، وقلت أولاً: ليس هذا الخبز بتمام، وفي المرّة الثانية قلت: هذا تمام. قالت: فحين دخلتما عليّ علمتُ أنكما جائعان، قلتُ في نفسي: كيف أقدم رغيفين إليكما؟ فلما جاء السائل أعطيتُهُما السائل طمعاً في أن يُعوّضني الله تعالى عن كلّ واحدٍ عشرة؛ لأنني تيقنْتُ قول الله تعالى ووعدهُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الانعام: ١٦٠] فجاءتِ الجاريةُ بثمانية عشر، علمتُ أنّها أخذتُ رغيفين، فلما جاءت ثانيًا بعشرين علمتُ أنّها حقّي، فقبلتها لذلك.

(١) في (أ): إما اتركي في البيت الذي كان لي بالبصرة.

(٢) في (ب): سيدتي بعث لك.

ونقل أنها كانت تُصلي في صومعتها أثر فيها ضعفٌ، وغلب عليها نومٌ، فوقعت على وجهها، وانكسر من الحصر عودٌ في عينها، ودميت وما أحستُ . وجاء سارقٌ، وأخذ ملحفةً كانت لها عتيقةً باليةً، وأراد الخروج، فاشتبه عليه الطريق، ولم يجد الباب، فردّها إلى موضعها، وأراد أن يخرج، انفتح له الباب، ثم رجع وأخذها، وعند الخروج انغلق عليه الباب، ثم ردّها، وتوجّه إلى الباب وجده مفتوحًا، وهكذا إلى قرب سبعين مرة، ثم سمع من بعض زوايا الصومعة: يا رجل، إلى كم تتعب نفسك؟! فإنّها - أي رابعة - قد سلّمت نفسها إلينا منذ سنين، فلا جرأةً لإبليس أن يطوف حولها، وأنت يا طرّار^(١)، لا تتعب؛ فإن إحدى الحبيبين، وإن كانت نائمةً، فالحبيب الآخر متبّهٌ، فيحفظها

ونقل أن خادمة رابعة احتاجت إلى بصلٍ، لأنها أرادت أن تطبخ طعامًا بعد أن لم تطبخه مدّةً، قالت: أطلب من بعض الجيران؟ فمنعتها رابعة، وقالت: عاهدتُ الله تعالى من أربعين سنة أن لا أسأل من غيره شيئًا، اطبخي بلا بصلٍ . ففي الحال جاء طيرٌ وفي منقاره بصلٌ مقشّرٌ، وألقاها في القدر الذي كان لها، فتركت رابعة ذلك الطبخ، وما أكلت منه، وقنعت بالخبز اليابس وقالت: يُمكن أن يكون مكرًا .

ونقل أنها صعدت جبلاً، وقد جاء إليها جماعةٌ من الوحوش، وطافت حولها، ودارت بين يديها مُستأنسةً بها، وما نفرّت منها، فبينما هي كذلك إذ جاء الحسنُ البصري رضي الله عنه، فتوجّهت رابعةٌ إليه، فلما أحست الوحوش بالحسن فرّت وتفرّقت، فتغيّر الحسن وتعبّج من الحال، وقال: يا رابعة، لم تفرّ الوحوش عني، وقد رأيتها استأنست بك؟ قالت رابعة: ما أكلت اليوم؟ قال: شيئًا من الشحم والبصل . قالت: أكلت شحمهنّ، لا جرم يهرين منك .

ونقل أنها مرّت ببيت الحسن، والحسن قد أخرج رأسه من الشباك ويكي،

(١) انظر شرح كلمة الطرار صفحة (٥١١).

فتقاطر من دموعه على رابعة. فظننت أنه من المطر، ونظرت إلى فوق، وعلمت أنه من دموع عين الحسن، قالت: يا شيخ، هذا البكاء أظنه من رعونات النفس^(١)، فاجمعها في جوفك حتى تصير بحرًا تطلب قلبك منه، ولا تجده إلا عند مليك مقتدر. فانغاط الحسن من هذا الكلام، إلا أنه كان ساكتًا عن الجواب إلى أن رآته رابعة قد بسط سجادة على الماء، وجلس عليه. فقال: يا رابعة، تعالي لنصلي هنا ركعتين. قالت: من أراد عرض الآخرة في سوق الدنيا ينبغي أن يكون بحيث يعجز عنه أمثاله، ثم رمت رابعة سجادتها إلى الهواء، وصعدت إليها، وقالت: يا شيخ، تعال إلى هنا يصل؛ لثلاثا يرانا أحد. فسكت الحسن رحمه الله، لكن أرادت رابعة أن تطيب خاطره، قالت: يا شيخ، الذي أنت فعلته تفعله السمك، والذي أنا فعلتُ يفعله الذباب، ولكن لا بد من الاجتهاد في العمل

نقل أن الحسن البصري رحمه الله قال: كنت عند رابعة يومًا وليلة، وكنا نتحدث في الطريقة والحقيقة، ولا يخطر ببالي أنني رجل، ولا ببالها أنها امرأة، ثم لما خرجت من عندها وجدت نفسي مفلسًا، ووجدتها مخلصًا

أقول: وهذا من كمال تواضع الحسن، فلا شك أنه يدل على كمال نفسه، إذ ليس شيء أضر للسالك من عجبته بنفسه. ولتعليم مقام التواضع كان النبي ﷺ يقول فيما روي عنه: «لا تفضلوني على يونس بن متى^(٢)» مع أنه ﷺ كان أفضل من يونس عليه السلام، ومن غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، يؤيده

(١) في (أ): من دموعات النفس.

(٢) لم أحده بلفظه، وقد روى البخاري في صحيحه ٥٢/٥ في الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص، ومسلم (٢٣٧٣) في الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله. ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من يبعث، فإذا موسى أخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقة الطور، أم بعث قبلي؟ ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى».

ما رُوي عنه عليه السلام: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبرَ على الله وضعه الله»^(١) والله أعلم.

نقل أن الحسنَ وجماعةً من أصحابه رحمهم الله زاروا رابعةً في ليلةٍ، ولم يوجد عندها ضوء، فنفتخت على أنملةٍ من أنامل أصابعها، فأضاءت مثل المصباح إلى الصباح، فإن قيل: كيف يمكن هذا؟ قلنا: لا بُدَّ به، كما في يد موسى عليه السلام، فإن قيل: إن موسى عليه السلام كان نبيًا من المرسلين، قلنا: نعم، ولكن من تابع نبيًا، فلا يبعد أن يصل إليه من أنوار شمس نبوته نصيب، قال عليه السلام: «من رد دانتًا من الحرام، فقد نال درجةً من النبوة»^(٢) وقال عليه السلام: «الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستٍّ وأربعين جزءًا من النبوة»^(٣)

أقول: ولذا نقدُّ أن كرامة الوليِّ أيضًا من معجزات النبيِّ عليه السلام. [والله أعلم].

نقل أنها أرسلت إلى الحسن بثلاثة أشياء: قطعة شمع، وإبرة، وشعرة، وقالت: كن كالشمع؛ فإنه يحرق نفسه، ويضيء على غيره، وكالإبرة فإنها آله للوصل - أي: صل من قطعك - فإذا صنعت هذين الأمرين تكون لك شعرة من العمل مقدار ألف سنة.

ونقل أن الحسنَ خطبها، فقالت: يا شيخ، عقد النكاح يستدعي موردًا موجودًا، ووجودي قد ارتفع من البين، فأنا فانيةٌ في نفسي، وموجوده بوجوده، وأنا له وفي ظلِّ حكمه، فاطلبنى منه لا مني. قال: يا رابعة، بم أدركت هذا المقام؟ قالت: بأن تركت المدركات كلها وضيعتها في وجوده. قال: كيف عرفته؟ قالت: يا شيخ، أنت تعرف بالكيف، وأنا أعرفه بلا كيف.

(١) حديث إسناده ضعيف رواه أحمد في المسند ٣/ ٧٦، وأبو يعلى (١١٠٩)، وابن ماجه (٤١٧٦)، وابن حبان (٥٦٧٨) عن أبي سعيد الخدري.

(٢) لم أجده في المصادر التي بين يدي.

(٣) حديث رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٩، ومسلم في صحيحه (٢٢٦٣) عن أبي هريرة.

ونقل أن الحسن رحمه الله ذهب إليها يوماً، وقال: علميني حرفاً من العلم الذي ما تعلمت من أحد، ولا سمعت؛ بل نزل في قلبك بلا واسطة مخلوق. قالت: غزلت شيئاً من القطن، وذهبت به إلى السوق لأبيعه وأحصل به شيئاً من القوت، فاشتراه مني شخصٌ بدرهمين، فأمسكتُ أحدهما بيدي، والآخر بالأخرى مخافةً أن يصير أزواجين لو أمسكتها بيدي واحدة، هذا من فتوحى اليوم.

قيل لها: يقولُ الحسن: إن صرتُ محروماً من مشاهدة جمال الله تعالى في الجنة لحظةً بكيث حتى يترحم عليَّ أهلُ الجنة. قالت رابعة: هذا الكلام صحيح، لكن إذا حصل له غفلة من ذكره في الدنيا لحظة حصل له مثل هذا البكاء والأنين والحزن، فذلك علامة على أنه يكون له في الآخرة ما قال، وإلا فخيالٌ وتوهمٌ

قيل لها: لِمَ لا تتزوجين؟ قالت: أسألُ منكم ثلاث مسائل، إن أجبتُ أمتثلُ أمركم، وأقبلُ كلامكم: الأولى: أني أذهبُ من الدنيا بإيماني سالمًا؟ قالوا: لا نعلمُ ذلك. الثانية: حال إعطاء كتب الأعمال، هل أعطى كتابي يميني أو بشمالي؟ قالوا: ما نعلمُ. الثالثة: في وقت يذهبُ بجماعةٍ من جانب اليمين، وجماعةٍ من جانب الشمال، أنا مع أيهما أكون؟ قالوا: ما نعلم. قالت: من تكونُ له مصيبةٌ مثلُ هذه، فكيف يتفرغُ للعرس؟!

وقيل لها: من أين تجيئين؟ قالت: من ذلك العالم. قيل: إلى أين تمشين؟ قالت: إلى ذلك العالم. قيل: بأي شيء أنت مشغولة؟ قالت: آكلُ خبزَ هذا العالم، وأشتغلُ بشغلِ ذلك العالم. قيل: فأنت تصلحين لرعاية الرباط. قالت: بل أنا خادمةٌ للرباط حارسةٌ له أمنعُ من^(١) الدخول ما هو خارجٌ منه، ومن الخروج ما هو داخلٌ فيه، ومن دخل فيه أو خرج عنه لا شغلَ له معي^(٢).

أقول: مرادها من الرباط القلب، والمعنى: أني أمنعُ الأمورَ الخارجة - أي

(١) في ب: أصنع من الدخول.

(٢) في ب: لا شغل لي معه.

زخارف الدنيا ومتاعها - من أن تدخلَ محبَّتُها في القلب، وأمنعُ الأمور الداخلة في القلب من الأسرار عن الظهور والانكشاف، وإن دخل شيءٌ في قلبي من الوسواس الشيطانية، والهواجس النفسانية يخرج عنه، ولا يشوشني بتوفيق الله تعالى، والله أعلم.

قيل لها: تحبين الله تعالى؟ قالت: نعم. قيل: تبغضين الشيطان؟ قالت: لا. قيل: وكيف ذلك؟ قالت: لغلبة محبة الرحمن لا أتفرغُ لعدواة الشيطان.

قالت: رأيتُ النبي ﷺ في المنام، قال: يا رابعة، هل تحبينني؟ قلت: يا رسول الله، من الذي لا يُحبُّك! ولكنَّ محبة الله تعالى استولت على قلبي بحيث لم يبقَ فيه موضعٌ لمحبة غيره، ولا لعدواة أحد.

وقيل لها: ما المحبة؟ وبمن تتعلَّق؟ قالت: طلعت المحبة من الأزل، وعبرت على الأبد، فلم تجد^(١) في ثمانية عشر ألف عالم^(٢) شخصاً يتجرعُ شربةً منها، ثم رجعت إلى الحق.

قيل لها: تعبدن الله تعالى، فهل ترينه؟ قالت: لو لم أره، لم أعبده.

قلت: المراد بالرؤية، إنما هي العلمية الاستدلالية أو الكشفية، لا العيانية. والله أعلم.

حكى أنها كانت باكية في أكثر الأحوال، قيل لها في ذلك، قالت: أبكي من خوف القطيعة، فإن استأنستُ به أخافُ أن أنادى وقت الموت: لست لائقة بنا، فحينئذ ماذا أصنع، وكيف يكون حالِي؟

قيل: متى يكون العبد راضياً؟ قالت: إذا فرح بالمحنة كما يفرح بالنعمة.

قيل: إذا كان العبد مُذنباً، فإن تابَ تُقبلُ توبته أم لا؟ قالت: العبدُ المذنبُ كيف يتوب؟! ولا يتوبُ إلا إذا تابَ اللهُ عليه، فإذا تاب عليه هو يتوب.

(١) في (أ): طلعت المحبة من المحبة من الأزل، وعبرت من الأبد، فلم نجد.

(٢) كان الوجود في الفكر القديم يشمل مكاناً ثمانية عشر ألف عالم، وزماناً ثمانية عشر ألف سنة. وسيكرر هذا اللفظ. انظر فهرس الألفاظ والمصطلحات صفحة (٩٢٧).

ومن كلماتها أن قالت: يا بن آدم، ليس في العين لله تعالى منزلٌ، ولا من اللسان إليه طريقٌ، ولا للسمع إليه مجال؛ بل أصحابُ اللسانِ حيارى، وأربابُ العقول سُكاري في شأنه، وإنما الشغل مع القلب، اجتهدوا في أن يتنبّه القلب، فإذا انتبه لا يحتاج إلى مساعدة غيره.

وقالت: الاستغفارُ باللسانِ صنعةُ الكذابين.

وقالت: إن تبت أنا - يعني بلا توفيق الله تعالى - فأنا محتاجةٌ إلى التوبة مرةً ثانية.

وقالت: لو كان الصبرُ رجلاً لكان كريماً.

ثمرة العرفان التوجه إلى الله تعالى.

العارف عليه أن يطلب من الله تعالى قلباً، فإذا أعطاه، رده عليه، وسلّمه إليه؛ ليكون في قبضته محفوظاً.

نقل عن صالح المري^(١) أنه كثيراً ما يقول: مَنْ دَقَّ بَابَهُ يُفْتَحْ لَهُ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ. قالت له رابعة: كم تقول هذا الكلام! متى كان بابُه مُغْلَقًا على أحد حتى يفتحه؟ قال صالح: يا عجباً، رجلٌ قوِيٌّ جاهل، وامرأةٌ ضعيفةٌ عالمة.

قيل: سمعتُ رجلاً يقول: واحزني. قالت: قل: واعدم حزني؛ فإنه لو كان لك حزنٌ لم يكن لك حزن.

رأت شخصاً قد عصب رأسه بعصاية، قالت: لم هذه العصاية؟ قال: لي صداع. قالت: كم عمرك؟ قال: ثلاثون سنة. قالت: هل حصل لك صداعٌ في هذه المدة؟ قال: لا. قالت: وما حالك عشت ثلاثين سنة سالمًا مُعَافَى من الأوجاع، وما شددت رأسك بعصاية الشكر، فبسبب صداع ليلة تعصبه بعصاية الشكاية!

(١) هو صالح بن بشير المري، عابدٌ محدث، دعاه المهدي إلى بغداد لعلمه بالحديث. وفي الأصلين: صالح المزني.

قيل: أعطت رابعةً دراهم لشخصٍ ليشتري لها كساءً، لأنها كانت عارية، فذهب الشخصُ وجاء إليها، وقال على أيّ لونٍ أشتري لك الكساء؟ قالت: لما جاء اللونُ في البين، أعطني دراهمي، فأخذتها، ورمتها في الدجلة^(١).

وقيل: دخلت في البيت، وكان فصلُ الربيع، قالت لها الخادمة: اطلعي من البيت يا سيدتي، وانظري إلى صنع الله. قالت: ادخلي إلى البيت، وانظري إلى الصانع^(٢)، شغلتنى مشاهدة الصانع عن مشاهدة الصنع.

نقل أنه ذهبَ إليها جماعةٌ للزيارة، فأروها تقطعُ اللحم بأسنانها، قالوا لها: ليس عندك سكين لتقطعي بها اللحم؟ قالت: من خوف القطيعة، لا أحبُّ أن يكون عندي سكين؛ فإنه آلة القطع، ما كان لي، ولا يكون أبدًا.

ونقل أنها صامت مرةً سبعةً أيام بلياليها، وما أفطرت، ولا تناولت شيئاً، ولا نامت ليلاً ولا نهاراً، وكانت طول الليل مشغلةً بالصلاة، وجاوزَ الجوعُ حدّه، فجاء شخصٌ إلى باب البيت بطعام لها، فأخذته، وذهبت لتلهبَ ضوءاً، فلما رجعت رأَت الطعامَ قد انقلبَ إناءه، وانصبَّ الطعام على الأرض، فذهبت لتأخذ كوزاً، وتُفطرَ على الماء، فانطفأ السراجُ، فقصدت الماءَ للشرب، وقع الكوزُ من يدها على الأرض، وانكسرَ، فأنتُ أنيناً كادَ البيتُ أن يحترقَ من أنينها ونفْسِها، وقالت: إلهي، ما هذا الصنعُ الذي تفعلُ مع هذه الضعيفة العاجزة؟! فسمعتُ صوتاً: يا رابعة، إن أردتِ أن نجعلَ الدنيا كلَّها وقفاً عليك نجعلها، لكن يخرجُ من قلبك حزننا وخوفنا؛ فإنَّ خوفنا لا يجتمعُ مع نعمِ الدنيا في قلب، يا رابعة، لك مُرادٌ، ولنا مرادٌ، فكيف يجتمعُ مرادنا ومرادك في قلبك؟ قالت: فحين سمعتُ هذا الخطابَ صارَ قلبي مُتقطعاً من الدنيا، وقصرَ أُملي إلى حدٍّ أصلي منذ ثلاثين سنةً، وأقولُ في كلِّ صلاةٍ: هذه آخرُ أعمالِي وآخرُ صلاتِي، وانقطعَتْ من الخلق إلى حيثُ كلَّما يصبحُ عليّ من خوفٍ أن

(١) جاء في المطبوع من الترجمة صفحة ٢٧٠: أي أن التفرقة ظهرت لها وهي لم ترتد المرقعة بعد.

(٢) في (ب): أدخل إلى البيت، وأنظرُ إلى الصانع.

لا يُخالطني^(١) أحدٌ، كنت أفرُّ من الناس .

ونقل أنها كانت تشقُّ دائمَ الأوقات، قيل لها: يا عزيزة، لا نرى ولا نعلمُ لك علةً ولا وجعًا، ولك أنينٌ وتوجعٌ دائمًا! قالت: لي علةٌ في الجوف، ووجعٌ في صدري يعجزُ كلُّ طبيبٍ في الدنيا عن معالجته، ولا دواءٍ لدائي غير وصالِ حبيبي، أتعللُ لعلِّي أصلُ إلى مقصودي غدًا.

ونقل أنه رآها جماعةً، فسألت واحدًا منهم: أنت لمَ تعبدُ الله تعالى؟ فقال: دركاتُ النار عظيمةٌ مهيبيةٌ، ولجميع الخلائقِ عليها عبورٌ، فأخافُ أن لا أبقى فيها زمان العبور، فأعبدُ الله تعالى خوفًا من النار. فسألت آخر، فقال: درجاتُ الجنة عاليةٌ، ونعمةٌ غاليةٌ، فلأجل حصولِ نعمةِ الجنةِ أعبدُ الله تعالى. قالت رابعة: أيُّ عبدٍ له يعبدُهُ خوفًا من النار، وطمعًا في الجنة! قالوا: يا رابعة، وأنت، لمَ تعبدين الله تعالى؟ قالت: الجارُّ ثم الدار، أليس يكفيننا أنه تعالى أذن لنا في عبادته، فلو لم تكن جنةٌ ولا نار كانت عبادتُهُ واجبةً علينا، فإنه مستحقُّ العبادة له، وهو المستحقُّ للعبودية

أقول: ويؤيدُهُ أنه سُمع عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول في مُناجاته: إلهي، ما عبدتُكَ رغبةً في الجنة، ولا رهبةً من الجحيم؛ ولكن وجدتُكَ أهلاً للعبادة، فعبدتُكَ. والله أعلم.

نقل أنه جاء إليها شخصٌ، ورأى ثيابها خالقةً مُتقطعةً، قال لها: هنا ناسٌ كثيرٌ، إن سألتِ عنهم ينظرون لك، ويُشفقون عليك. قالت: أنا أستحيي أن أطلبَ الدنيا ممن هو ملكه، وهو مالِكُها، يُعطي من يشاء، ويمنعُ من يشاء، فكيف أطلبُها من شخصٍ هي عاريةٌ في يده؟ قال الرجل: يا عجبًا من علوِّ همّةِ هذه العجوز؛ فإنها لا تريد أن تصرفَ وقتها في غيره، ولا تشتغلَ بغيره أبدًا - أي بغير الله تعالى.

(١) في (أ): ألا يخاطبني أحد.

أقول: وقد أنشد في هذا المعنى أبيات كثيرة، منها ما قيل:

لله تحت قباب العزّ طائفةٌ أخفاهم في لباس الفقر إجلالا
هم السلاطين في أطمار مسكنة جرّوا على قليل الأفلاك أذيالا
عُبرّ ملابسهم شمّ معاطسهم استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا
هذي المناقب لا ثوبان من عدنٍ خيطا قميصا فعادا بعدُ أسمالا
هذي المفاخر لا قعبان من لبنٍ شييا بماء فصارا بعدُ أبوالا

ونقل أنه جاء جماعة إليها على سبيل الامتحان، ليمسكوا عليها كلاما، فقالوا لها في أثناء المكالمة: إن الله تعالى أعطى الرجال كلّ كرامةٍ ومزيّةٍ وفضيلةٍ، حتى وضع تاج النبوة على رؤوس الرجال، وألبس بعضا منهم حلّة الخلة، ونورّه بنور المحبّة، وما صارت نعم النبوة سهما للنساء؟! قالت: نعم، وهكذا، أطلع دعوى ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] من جيب أحد من النساء؟ وما صارت واحدة من النساء مُختبئةً، فإنّ الخنوثة في الرجال.

قيل: مرضت واشتدّ مرضها، فقيل لها: ما سبب هذا المرض؟ قالت: التفتُ التفاتةً إلى الجنة، فأدبني ربي.

وقال الحسن رحمه الله: ذهبتُ إلى صومعة رابعة عيادة لها، فالتقيتُ بشخص من تجار البصرة واقفاً على باب الصومعة ويكي، ولديه صرة من النقد، قلت: لم تبكي؟ قال: على هذه الزاهدة التي إن أخرجت بركاتها^(١) من بين الخلائق هلكوا. قلت: وما هذه الصرة؟ قال: أتيتُ بها لأصرفها في بعض حوائجها، وما أدري هل تقبلها هي أم لا؟ ولكن أرجو منك أن تشفع لي في القبول عسى تقبل مني. فدخل الحسن، وعرض عليها، نظرت إلى الحسن بطرف العين، وقالت: من يرزق من يسبه، ألا يرزق من يحبه؟!

أقول: معناه أن الله تعالى يرزق من لا يعرفه؛ بل يشتمه ويسبه كالكافر مثلاً، فهل يجوز بالنسبة إلى كرمه ولطفه أن لا يرزق من يموج بحر قلبه من محبة

(١) في (أ): قال: هذه الزاهدة التي انخرجت بركاتها.

حضرته ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] والله أعلم

ثم قالت : يا شيخ ، مُدَّ عرفتُ الله تعالى أَعْرَضْتُ عن الخلق ، والمالِ الذي لا أَعْرِفُ أَنَّهُ حلالٌ أو حرام ، كيف أقبله ؟ وقد خَطْتُ قِطْعَةً على قَمِيصٍ في ضوء مصباح سلطان ، انسَدَّ عليَّ بابُ قلبي زماناً حتى فَتَقْتُ ما خَطْتُ ، ورميت ، ثم افتَحَ البابُ^(١) ، واعتذِرُ من ذلك التاجر حتى يطيب قلبه .

قال : عبد الواحد بن عامر : أنا وسفيان ذهبنا إلى رابعة للعيادة ، ما استجرينا أن نبتديء عندها بالكلام من غاية مهابتها ، قلت لسفيان : تكلم بشيء . قال : يا رابعة ، لو دعوت الله في كشف هذه الكربة عنك ، وتسهيل الأمر عليك . فتوجهت إليه ، وقالت : يا سفيان ، ألا تعلم أن هذا الوجع بإرادة الله تعالى ؟ قال : نعم . قالت : إذن تعلم أنه إرادة الله ، فكيف تقول أن ادعو الله ليفعل شيئاً على خلاف مراده ؟! لا يجوز مخالفة الحبيب بحال . ثم قال سفيان : ماذا تشتهين يا رابعة ؟ قالت : يا سفيان ، أنت رجل من أهل العلم ، كيف تقول ماذا تشتهين ؟ بعزة الله إنني أشتهي الرطب من اثنتي عشرة سنة ، وتعلم أن الرطب بالبصرة أكثر شيء يكون ، وبعد ما أكلته ؛ لأنني عبدٌ ، ولا شغل للعبد بتحصيل المُشتهيات ، فإني إن أردتُ ولا يُريد سيدي فذا كفرٌ في الطريقة ، يجبُ على العبد أن لا يشتهي ولا يريد إلا ما يُريده السيّد ليكون عبداً على الحقيقة ، وإن أراد الله فشيءٌ آخر . فسكت سفيان ، ولم يتكلم بعده ، إلا أنه قال : لا يمكننا أن نتكلم في شأنك ؛ ولكن تكلمي في شأني . قالت : نعم الرجل أنت لو لم تكن مُحِبّاً للدينا . قال سفيان : وما ذلك ؟ قالت : لأنك تحبُّ رواية الحديث للجاه في الدنيا . قال سفيان : رِقُّ قلبي من هذا الكلام ، قلتُ : يا رب ، ارض عني . قالت : ألا تستحيي أن تطلب رضا من لست أنت راضياً عنه .

قال مالك بن دينار رحمه الله : ذهبتُ إلى رابعة ، وجدتُ عندها كوزاً

(١) في الأصلين : ثم انفتح الباب .

مكسورًا تشربُ منه الماءَ وتتوضأُ منه، وقطعةً باريةً عتيقةً، ولبنةً تضعُ عليها رأسها، فلَمَّا رأيتُ ذلكَ اتَّجَعَ قلبي، قلتُ: لي أصحابٌ، هم أصحابُ مالٍ، لو أردتِ أخذتُ منهم شيئًا، وصرفت في حوائجك؟ قالت: غلظت يا مالك غلظًا عظيمًا، أليس رازقي ورازقهم واحدًا؟ قلت: بلى. قالت: هل ينسى الرازق الفقير لفقره، ويرزقُ الغني لغناه؟ قلتُ: لا. قالت: فإنه يعلمُ حالِي، فلا حاجةً إلى التذكير، إرادتهُ تقتضي هذا، فنحن أيضًا نريدُ ما يريدُهُ هو.

نقل أن الحسنَ البصري ومالكَ بنَ دينار، وشقيقَ البلخي رحمهم الله جاؤوا إلى رابعة، وكانت مريضةً، فقال الحسن: ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يصبِرْ على ضربٍ^(١) مولاه. قالت رابعة: يشمُّ من هذا^(٢) رائحة الأناية. قال: شقيقٌ: ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يشكرْ علي ضربٍ مولاه^(٣). فسكتت رابعة، قال مالك: ليس بصادقٍ في دعواه مَنْ لم يتلذذْ بضربٍ مولاه. قالت رابعة: نُريد خيرًا من ذلك. قالوا: قولي أنت. قالت: ليس بصادقٍ في دعواه من لم ينسَ الضربَ في مشاهدة مولاه، وهذا ليس بعجيبٍ؛ فإنَّ نساءَ مصرَ نسين الألمَ في مشاهدة مخلوقٍ، فإن حصل هذا الحال في مشاهدة الخالق فلا يكون بعيدًا

ونقل أنه جاء إلى رابعة شخصٌ من أكابر البصرة، وهي كانت مفترشةً للوجع، وأخذ يذمُّ الدنيا، قالت له رابعة: جميلٌ أنك^(٤) تحبُّ الدنيا، فإنك لو لم تحبها لما ذكرتها؛ فإنَّ المُشترى للشيءِ يُظهر منه عيبه، ويحطُّ من مقداره، فإنك لو كنتَ فارغًا من الدنيا لم يعبرَ ذكرها على لسانك، ذلك كما قيل: مَنْ أحبَّ شيئًا أكثرَ ذكره^(٥).

(١) في (ب): علي ضرب مولاه.

(٢) في (ب): أشمُّ من هذا.

(٣) في (ب): لم يشكر علي مرض مولاه.

(٤) في (أ): علمنا أنك تحبُّ.

(٥) قال العجلوني في كشف الخفا ٣٠٧/٢ (٢٣٥٢) رواه أبو نعيم، والديلمي عن عائشة

رضي الله عنها مرفوعًا.

قال مسمع^(١): ذهبت إلى رابعة وقتَ العصر، وكانت تريدُ طبخَ طعامٍ، وقد وضعت القدرَ على الأنثفة، وصبَّت فيه الماء، واشتغلنا بالحديث، وبقينا إلى المغرب وتركتِ الطبخَ، وقالت: الحديث خيرٌ منه. حتى أذنوا المغرب، وصلينا، وقامت رابعةٌ وقدمتْ بماءٍ في كوزٍ، وكسيرةٍ خبزٍ يابسٍ، وأفطرنا عليه، ثم راحت رابعةٌ إلى القدر لترفعها، فأحسَّت بالحرارة، فنظرت، فإذا الطعامُ الذي كان فيه قد انطبخ، والقدرُ بعدُ يغلي بأمرِ الله تعالى، فأنت به، وأكلنا الطبخَ واللحم، وما أكلنا الدَّم من ذلك.

قال سفيان: أتيتُ إلى رابعة وقتًا، وهي دخلتِ المحراب، واشتغلتُ بالصلاة إلى الصباح، وأنا أيضًا كنت مشغولاً بالصلاة في زاويةٍ، ثم قلتُ: وبأيِّ شيءٍ نشكرُ الله تعالى إذ وقَّفنا الله تعالى للصلاة البارحة؟ قالت: بأن نصومَ النهار.

وكانت لها مُناجاةٌ كثيرة، منها أنها قالت: إلهي، إن أرسلتني غداً إلى جهنم، اكشفْ سرّاً نقرُ النار مني مسافةَ ألف سنة.

وقالت: إلهي، ما قسمت لي من الدنيا فأعطه الأعداء، وما قدرت لي من الآخرة أعطه للأولياء؛ فإنك أنت تكفيني، ولا حاجة لي إليهما.

وقالت: إلهي، إن عبدتك خوفاً من الجحيم فحرّم الجنة عليّ، وإن عبدتك لذاتك فأرني جمالك.

وقالت: إلهي، فإن أدخلتني النارَ غداً يوم القيامة، أستغيثُ وأقول: إلهي، أنا أحببتك، كذا تفعل مع المحبِّ؟ فسمعت هاتفاً يقول: يا رابعة، لا تظنين بنا ظنَّ السوء.

وقالت: إلهي، شأني وشغلي وأمنيتي من الدنيا ذكرُك، وفي الآخرة لقاءك، ثم ما تريدُ فاعملْ معي.

(١) كذا في الأصلين، وفي المطبوع من الترجمة ٢٧٤: قال الحسن.

وكانت تقول ليلةً في مناجاتها: إلهي، اجعل قلبي حاضرًا، واقبل صلاة مَنْ قَلْبُهُ مَعَكَ غَائِبٌ .

فلَمَّا حضرتها الوفاة كان عندها رجالٌ، قالت: اذهبوا من عندي، واجعلوا المكان خاليًا لرُسل الله تعالى .

فخرج الرجال، وردُّوا الباب، ثم سمعوا من يقول: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] الآية فما أحسُّوا صوتًا بعده، فتحوا الباب، ودخلوا، فإذا هي ميتةٌ، وسلِّمت روحها لحبيبها .

قال بعض الأولياء^(١): دخلت رابعة في الدنيا وخرجت إلى الآخرة وما تهجَّمت على الله أبدًا، ولا طلبت منه شيئًا أصلًا، فكيف من الخلق؟

رأوها في المنام بعد الوفاة، فقيل لها: أخبري عن حالك، كيف نجوت من منكر ونكير؟ قالت: لَمَّا دخلا عليّ، وقالوا: من ربُّك؟ قلت لهما: أرجعوا وقولا لله تعالى: إنك ما نسيتني مع أن لك ألفَ ألفِ مثلي من العبيد والإماء؛ بل مقدار ما لا يعلمهم إلا أنت، وأنا عجوزٌ ضعيفةٌ فقيرةٌ، ليس لي أحدٌ غيرك، ولا حبيب سواك، فهل يُمكنني أن أنساك حتى تبعث إليّ رسولاً، ويسألني من ربُّك؟!

قيل: إنه جاء جماعةٌ إلى قبر رابعة، ونادوا: يا رابعة، كنتِ تدعين أنك لا تلتفتين إلى الدنيا وما فيها، فإلى ما انتهى حالك؟ فسمعوا صوتًا من قبرها: إنِّي وصلتُ إلى ما طلبتُ .

نسألك اللهم، يا مُنَجِّحَ الآمالِ، ويا مقلِّبَ القلوبِ، ومغيِّرَ الأحوالِ أن تثبَّتْ قلوبنا على دينك ومحبيتك، وتجعلنا بعزَّتكَ من عبادك الصالحين، يا ربَّ العالمين .

* * *

(١) في (أ): قال بعض العلماء .